

### د. رفيق حاتم ضيف واحد كريم، واعتذار للأصدقاء الطيبين

**ابتداء:** أود أن أقدم اعتذاري هذا الأسبوع عن مواصلة الحوار مع كل من تفضل من الأصدقاء، خاصة المنتظمين، ممن أرسل رأيهم أو تعليقه هذا الأسبوع، ذلك لأنه قد وصلني من ابن عزيز، يعيش في فرنسا، وقد تفرّس دون أن يتخوّن، فهو مازال مصريا مُقْطِياً حتى النخاع، وهو دائما معي مهما طال غيابي، وزاد انشغالي، ومهما تباعدت رسائله، حتى أنني كثيرا ما أبلغه ما أريده عن طريق ابنة صديقة (هي ابنتي أيضا من زوجة أخرى هي: قصر العيني)، وقد تصادف أنها تزوجته دون علمي، والأهم أنها أم حفيداتي صديقاتي الثلاث ياسمين، وفرح، ونسمة. (ولهذا حديث آخر مهم)

وصلني بريد د. رفيق الذي كنت أنتظره منذ ورطت نفسي هذه الورطة، كنت أنتظره لأسباب لن أطيل في شرحها الآن، وإن كنت قد تطرقت إلى بعضها في حوارى مع الابن د. أسامة عرفة، لكننى هنا أكتفى بذكر سبب واحد -ولو كان في ذلك إعادة-، هو أنني كنت، ومازلت، حريصا أن أعرف من أحاطب، وأن أتابع ما يجرى في ثقافة غير ثقافتنا، من خلال رؤية وممارسة شهود عيان، أتاحت لهم فرصة الغوص إلى الداخل (داخل النفوس) لعلهم (الأطباء النفسيين أبنائي وبناتي) يجدون من غلوائى، فأتعلم، أو اصل محاولاتى بشكل أفضل.

المهم، هذا هو الابن رفيق حاتم، أهلا بك يا رفيق (أعرف أنك ستسمح لي بتقطيع خطابك، فقد اعتدت ذلك أيام كنت معنا في "الإنسان والتطور"، وقد لاحظت أنك لم تنس تقاليد هذه المجلة التاريخ، سواء من حيث "الحوار المصنوع"، أو في باب "مقتطف وموقف" قد نظمت تقديم خطابك باعتباره "موقفاً" من "مقتطف" محدد)

هات ما عندك يا رجل، أوحشتنا.

د. رفيق

كل سنة و أنت و كل من تحب او لا تحب طيبين

د . يحيى

وأنت بالصحة والسلامة يا شيخ، أين أنت؟! حلوة حكاية "أو لا تحب هذه"، صحيح!!، معك حق، لماذا لا نتمنى لمن لا نحب أن يكونوا هم أيضا طيبون حتى العام القادم، هل نعاقبهم لأننا لا نحبهم، أم نعاقب أنفسنا، وحتى لو كانوا أشراراً، فليكونوا طيبين، فتقل شرورهم، لقد فرحت يا رفيق أن ابنتي "د. أمان" أبلغتك حكاية هذه النشرة اليومية، وأنت تعرف موقف أمان الأمين الواضح، وعواطفها الصادقة المحبة، لكنها عادة لا تكتب، ولا تعقب، وربما احتراما لميولها هذه، طلبت منها أن تبلغك رغبتى في أن نتابعنا أنت بالأصالة عن نفسك، والنيابة عن من يهمه الأمر..

د . رفيق

أنا أتابع ما تكتبه بانتظام و سعيد بما تبذل من جهد لشحن الهمم و العقول.

د . يحيى

شحن الهمم؟ يعنى! أما شحن العقول، فأحسب أنك لم تنس علاقتى بشحن العقول، فالعقول الحديثة المغرورة يا رفيق- كما تعلم- قد سُجِّدَتْ أكثر من اللازم حتى أصبحت مسنونة حادة تقطع كل ما عداها لتحتكر المعارف والوسائل جميعاً\_ أنت تعرف أن هدفى هو "تحريك الوعى": مستويات الوعى معاً، أو بالتبادل للتضفر، وهذا غير شحن العقول اياها أو حتى شحن الهمم، أنا أقبل طبعاً رؤيتك، وأعلم أن ما وصلك هو بعض ما أحاوله، لكنى خشيت على القارئ أن ينسى حكاية "تحريك الوعى"، التى أنا متأكد أنك على أتم إحاطة بها، أنا كتبت يا رفيق حتى اليوم 47 مقالا أو رأياً أو رؤية في هذه النشرة اليومية، فهل يا ترى قرأتها جميعاً برغم انشغالاتك، وماذا استرعى انتباهك بوجه خاص؟ فعلقت عليه؟

د . رفيق

هذا تعليق على مقالة الصوفية والفطرة والتكوين البشرى.

المقتطف: ... ربما هذا ما يشير إليه الجنيد في قوله "... إثبات ذات الله من خلال العلم أفضل من إثباتها من خلال الوجود"، العلم هنا ليس العلم السلبى الذى نعرفه، لكن العلم يعنى أنه إعدامنا للثابت الذى يحول دون حركة المعرفة المتواصلة، هو العلم الذى يتخلق منه ضده ليصبح وحدة أكبر فعدماً أنشط، وهكذا، هذا الامتداد المتصل هو أقرب عندي لقراءة معنى "...الإيمان بالغيب، لا الانعدام فى الغيبوبة"، ومن ثم مواصلة السعى إليه.."

د . يحيى

إذن، أنت تعلق على تعليقى أنا، تعليقى على بعض ما اقتطفته من كتاب ماري شميل "تاريخ التصوف الإسلامى.. إلخ"، وهو الكتاب الذى ملأنى عرفاناً بفضلها، واحتراماً لها، هذا، ولعلك تابعت حوارى (المصنوع) مع د. زكى سالم حول حكاية العلم عند الصوفية، ولكن دعنا

نقصر حوارنا على المقتطف الذي اخترته، فماذا أثارك في تعليقي على ما اقتطفته وشرحت؟

#### د. رفيق

أثارت عندي هذه المقالة تحريك غير متوقع يتعلق بمعنى الإيمان بالغيب. فحتى الآن كان الإيمان بالغيب متعلق عندي بالتسليم السلبي انتظارا للفرج، وعدم الأخذ بالوسائل المتاحة لتحقيق المراد.

#### د. مجيى

جاءك كلامي؟ ألم أقل لك أنك سيد العارفي بحكاية "تحريك" هذه وليس مجرد شحذ

#### د. رفيق

عند قراءة المقال قفز في ذهني مفهوم متعلق بالعلاج النفسي إذ يرتبط التحسن أو زوال الأعراض بعملية إحداث أو حدوث تغير غير متوقع و غير محسوب من خلال مفردات متاحة بشكل من الأشكال Faire Advenir. مثلا...

#### د. مجيى

شكرا يا رفيق، ولكنك تعرف أنني لن أترجم ما لم تقم بترجمته أنت، فلا أنا أستطيع، ولا أنا أعرف تحديدا ما تقصد إلا من السياق، ولكن لأدعك تكمل أولا ..

#### د. رفيق

عند علاج المريض الذهاني من العرض الضلال (مثلا) باستخدام العلاج الدوائي لا يكون التحسن بزوال المعتقد الضلالى فحسب وإنما بتغير ما في طريقة إدراك الواقع و التعامل معه.

#### د. مجيى

الناس يا رفيق عندنا، وأظن بعضهم عندك أيضا، نسوا عمق ما يجري في العلاج النفسي، أو في علاج النفوس عامة، خصوصا حكاية مثل "تغير في طريقة إدراك الواقع"، كما تقول، يحسبون ، ويرددون دائما أبدا، حكاية أن العلاج فضفضة، وكلام، وترييح، وفك عقد، وأنت تعلم أن هذا يرجع إلى ما نشيعه - نحن الأطباء النفسيين والمعالجين النفسيين - عادة، فضلا عن دور الإعلام القشرى، والدراما المسطحة، ثم إن أغلب الناس والمرضى والأطباء والمعالجين أيضاً يميلون إلى قياس التغير بتغير في ظاهر في السلوك، ولا ينتبهون إلى عمق ما جرى.

#### د. رفيق

هذا التغير و نوعيته غير محسوب، ولكن ترقبُهُ يدخل في صميم مفهوم العلاج النفسي و أكاد أقول في أى علاج إلا أنه في العلاج النفسي يأخذ ترقب التغير مكانا محوريا بل يُسعى إليه من خلال طرق علاجية مختلفة...

#### د. مجيى

أظن يا رفيق حكاية "ترقب التغير" هذه صعبة على

الناس، ذلك لأن أغلبهم - بما فيهم كثرة من الأطباء والمعالجين يعتبرون هذا "التقرب" عملية عقلية واعية أكثر ، كما أنهم يقيسون التغيير بما هو "تغير سلوكي" محدد كما قلتُ حالا، وأنا لا أحسب أنك تعنى هذا أو ذاك، صدقتى يا رفيق - وأنا أعلم أنك تصدقتى- أننى أتابع (وأرصد هذا التغيير النوعى فُي، وفي المرضى، وفي أبنائى وبناتى الزملاء تحت التدريب)، أفعل ذلك بصعوبة ويقين معاً، خاصة وأن التغيير يحدث -بعد تراكم ممتد- في جزء من الثانية، وقد سجلتُ عشرات، بل مئات الأشرطة بالفيديو لأعود إليها وأنا أقدم ما يحدث، وحين حاولت الاستفادة منها وجدت صعوبة هائلة، خصوصاً مع اعتبار آداب المهنة والسماح المسبق اللازم حتماً، ماذا نفعل إلا أن ندور ونلغف، وفي النهاية نقول قول الصوفية "من ذاق عرف" وبالقياس "من تَدَرَّبَ فهمُ وصدَّق"، و"مَنْ شَفَى تَجَاوَزَ"، لكن دعنا نعود إلى حوارنا حول الإيمان بالغيب، والعلاج النفسى، ما العلاقة؟

#### د . رفيق

(نعم)، ما العلاقة بين الغيب والإيمان به؟ هل يمكن إذا فهمُ الإيمان بالغيب على أنه تسليم بأن في حوزتنا أدوات ومعطيات كامنة ومجهولة قادرة من خلال مخاض ولادة على إحضار أو تلقي شيء (من الغيب) إلى حيز الوجود. شيء ذى نوعية ودلالة متجاوزة ومغيرة لكل الحسابات؟

#### د . يحيى

يُمكن ونصف!!

#### د . رفيق

دخل في قسم الطب النفسى الذى أعمل فيه مريض تجاوزت سنه الثمانين بعد محاولة انتحار. هذا المريض يعيش وحده و كان قادرا حتى الآن على تحمل مسئوليات المعيشة اليومية ومتطلباتها بصعوبة متزايدة يوماً بعد يوم. وبعد الفحص النفسى تبين أنه لا يعاني من أعراض اكتئابية أو ذهانية الآن أو في الماضى. وشرح لنا المريض أنه قرر الانتحار لأنه يدرك تقلص قدراته السريع وعجزها عن تحمل ضرورات الحياة اليومية، وقد أصبح غير قادر على ممارسة أى نشاط، و بالتالى قرر الموت إذ أن مشوار حياته كان مُرضياً، فقد آن الأوان لكى يذهب في سلام بدلا من انتظار تدهور وآلام و عجز حتمي.

و كان السؤال المطروح هو: لماذا نبقى هذا المريض في المستشفى و بأى حق نعالجه؟ ومن ماذا؟ إذ هو لا يعاني من أى مرض نفسى حتى لو كانت محاولة الانتحار عرضاً نفسياً. لماذا نحاول منعه عن ما نوى عليه؟ ألا يدخل هذا في نطاق التدخل في حرите الشخصية؟

#### د . يحيى:

ياه!! هل تذكر يا رفيق لقاءنا في الفاتيكان، وكان الموضوع الأساسى هو "القتل الرحيم" وكان المؤتمر لنقاش

مشروعية وإنسانية إجراء قتل ناعم للمريض الميئوس من شفائه إذا ما طلب ذلك، وكنت أمثل وجهة نظر الإسلام، كما كان معي في نفس الجلسة هندوكي وبوذي وممثل لأبيدولوجية الحدائثة (المكافئة لدين ما)، وقال كل منا وجهة نظر ما يمثله مما قد نعود إليه في يومية آتية هنا، وكنت أنت قد تفضلت وحضرت من باريس، لنمض معا بضعة أيام، ثم أزورك وأسرتك/أسرتي، هناك. تذكر يا رفيق كيف تناقشنا في هذا الأمر وغيره، كما توثقت علاقتنا التي لم تكن تحتاج إلى توثيق أوثق! هذا الذي تحكى عنه هو أصعب من القتل الرحيم، لأنه هو قرار هذا الإنسان الطيب، دون أن يصاب بمرض ميئوس منه، مجرد حسابات بسيطة، ومنطق سليم، هكذا يبدو.....

#### د . رفيق

**(فعلا)** لم أجد جوابا منطقيًا أو علميًا لتبرير موقفي العلاجي، وقلت لنفسى أليس الهدف الأسمى للطب هو الحفاظ على الحياة؟ هل يكون هذا الهدف السامى على حساب عذاب المرضى؟ أليس من الرحمة الاستجابة لطلبه وعدم التدخل؟

#### د . يحيى

يا رب سترك، ثم ماذا؟

#### د . رفيق

كان على أن أمنع هذا المريض من الانتحار، لأنه إذا كانت حساباته وتوقعاته منطقية، إلا أنه لا يملك أن يرى ماذا يحمل له ولن حوله الغد، وأن من واجبي كطبيب أن أرافقه في هذه الرحلة، وأن أكون سببا في **حركة** ما عنده أو عندي بالرغم من يقينه اليائس لمقبول عاطفا خطر في ذهني مقولة الفيلسوف وعالم الأنتروبولوجي والإتكنولوجي كلود ليفي شتراوس Claude Lévi-Strauss في وصف المجتمعات البدائية إذا قال أن جهلهم بنظمنا المعرفية لم يعقهم عن مواجهة تحديات الطبيعة والمعيشة، إذ وجد لديهم نظاما معرفية وإدراكية غير التي نعرفها، أتاحت لهم سبل البقاء.

#### د . يحيى

أحيانا يحظر ببالي يا رفيق أن المجتمعات البدائية، برغم كل سلبياتها، هي أقرب إلى الفطرة، مع أنني أرفض الترادف بين البدائية والفطرة، لكنني مع التجاوز أفهم ما نهى عنه الدين، خاصة في مسألة إنهاء الحياة، على أنه نوع من تأكيد طبيعة ومسار الفطرة السليمة، وذلك **بتعميق العلاقة بين المعلوم والجهول، لصالح الحياة**، ولو كاحتمال قائم **"فيما بعد" "ما نعرف"**، وهذا ما تقوله أنت...

#### د . رفيق

تساءلُ ماذا يمنع مريضنا المسن وهو يفقد تدريجيا قدراته المعرفية والجسمية أن يكتسب نوعية أخرى من الوعي بالأشياء تمكنه من تجاوز رؤيته اليائسة والتصالح مع الأشياء وتأسيس معنى مغاير لوجوده؟

**د . يحيى**

لاشئ يستبعد حدوث مثل ذلك، هذا بالنسبة لمريضك المتزن العقل، برغم تقدمه في السن، فماذا عن من فقد قدراته المعرفية جزئيا أو كليا مع مرور الزمن؟

**د . رفيق**

هذا المريض (الذى أحكى عنه) لا يزال يحتفظ بقدراته الذهنية بالرغم من وهنها وبالتالى الأمل في التجاوز مشروع، فما بالك بمرضى عته الشيخوخة Senile Dementia ما الذى يبرر مرافقتهم والإتيان بكل أفعال الحياة اليومية بدلا منهم إذ يعجزون عن أى شئ، يربطهم بما هو حياة إنسانية إلا ما في ذاكرة الآخرين عنهم؟ وهم قد فقدوا القدرة على التعرف على أقرب الناس لهم، كما فقدوا كل قدرة على التواصل اللغوى أو بأى شكل من الأشكال؟

**د . يحيى**

صحيح، مارأيك؟

**د . رفيق**

الإجابة التى حضرت في ذهنى متعلقة بنفس الموقف السابق و إن كان هناك إمكانية إحداث Faire Advenir نقلة أو تجاوز أو تغير غير مطروحة عند المريض للضرر الذى أصاب الجهاز العصبى إلا أن هذا لا يأخذ في الاعتبار إمكانية نقلة عند من يصاحب المريض في هذا المشوار الصعب. النقلة المحتملة والآتية إيمانا ليست فردية بالضرورة و لكنها تشمل من يحملون مشقة تحمل العلاقة.

**د . يحيى**

ولكن ما علاقة هذا بالإيمان بالغيب؟

**د . رفيق**

إن المعطيات الكامنة والمجهولة القادرة على الحدوث ليست بالفردية أو الشخصية، كأنما ينتظر الشخص طالعه، ولكنها كامنة في نوعية العلاقة بين الأفراد. وبذلك يصبح فعل المصاحبة و تحمل الآخر بكافة الأشكال ليس من قبيل العمل الخرى أو الإنسانى الذى يستحق ثوابا فحسب و إنما هو الذى تكمن فيه معطيات حدوث تجاوز مستقبلى. هذا التجاوز إن لم يشمل مريضنا فسوف يشمل حتما مرافقه، و من تحمّل تحدى الاستمرار.

**د . يحيى**

هل هذا هو بعض ما تعنيه من مراجعتك لإيجابية الإيمان بالغيب

**د . رفيق**

يبدو أنى أؤمن بالغيب، وأدرك عمق ومحورية هذا الإيمان، ليس كفر ضر دىنى و إنما كضرورة حياتية.

**د . يحيى:**

يا عم رفيق أنا أشكرك بجد، لأسباب كثيرة، منها أنك

ذكرتني أننى طبيب نفسي!، وأن هذه النشرة اليومية ينبغي أن تحوى بين الحين والحين معلومات وقائية وعلاجية مناسبة لزوارنا الأفاضل، ومنها أنك طمأنتى أنك ما زلت أنت هو أنت، وسوف أرسل لبعض أبنائى وبناتى عبر العالم، أطلب منهم مشاركتنا أنت وأنا، وكل من يهمله الأمر، مثلا د. يسرية أمين، ود. مؤمن النسرة، وليس د. عصام اللباد، فقد قطع علاقتى به بشكل أراحنى كثيرا، برغم افتقاده إياه نادرا، العجيب يا رفيق أننى أحيانا، كما قلت للدكتور أسامة عرفة فى السعودية، أتصور أننى أكتب فى هذه اليومية ما أراه طببا نفسيا، أكثر مما يتاح لى إلقاؤه فى محاضرة فى مؤتمر عالمى يعقد تحت رعاية مشبوهة من شركات مغرضة على بعد مئات الأميال، ولا يتاح فيها أى نقاش حقيقى، وقد كنت أتصور بعد 47 يوما من الكتابة اليومية المنتظمة هكذا، أننى سألقى من يهمله متابعة فكرى، بما يسمح لى أن أتصور أننا عقدنا مؤتمرا مستمرا فيما بيننا، بلا وصاية، ولا شبهة رشوى، ولا خدعة تسويق ما لا نريد تسويقه، لكن الأمور تسير كما ترى.

(أسمعك تقول، مع أنك أنهيت خطابك)

د. رفيق:

لماذا هذه العجلة باعنا؟

د. يحيى:

عندك حق، عندك حق، لماذا العجلة ؟

أهو الجوع إلى الناس لنحاول معا؟ أهو الأمل فى الآتى (الغيب)؟ أهو الشوق إلى الحقيقة؟ أم هو كل ذلك ؟

(أسمعك تقول ما لم تكتبه)

د. رفيق

هو كل ذلك!!!

بعد الخاتمة:

أكرر اعتذارى للأصدقاء الدائمين والجدد،

ولو سمح الوقت فيظهر بريد الجمعة يوم السبت (غدا)

كما حدث من قبل، أما إذا لم يسعنى الوقت ، فإلى الأسبوع القادم .